المجنون

ـ ٥ ـ

ثمَّ إنَّ (نابغة القرن العشرين) استخفَّه الطربُ لذكر صواحبِه ، وجميلاتِهِ من فاطمة إلى رَباب ، ومن طبع المجنون : أنَّه إذا كذَبَ صَدَّق نفسَه ، فإنَّ قوَّةَ الضَّبطِ في عقله إمَّا معدومةٌ ، وإما مختلَّةٌ ، وكلُّ وجهٍ تَخَيَّل منه خيَالاً ، فهو وجهٌ من وجوه العلم عنده ؛ إذ كان عالَمُه أكثرُهُ في داخِله ، لا في العالَم ، فإذا توهَّم ، أو أحسَّ ، أو شعَر ، فإنَّما يكون ذلك بطريقته هو ، لا بطريقة النَّاس العقلاء ، فليس يَحتملُ عقلُه إلا فكرةً واحدةً تمضي منفردَةً بنفسها مستقلَّةً بمعناها ، كأنَّها قَدَرٌ غالبٌ على جميع أفكاره الأخرى ، فلا شأنَ لها بالواقع ، ولا شأنَ للواقع بها ، وإنَّما هي تُحقِّقُ معناها ، كما تَخْطُرُ له ، لا كما تتمثَّلُ فيما حوله .

فبين كلِّ مجنونٍ وبين ما حولَه دماغُه المُتَدجِّي[1] بالغُيوم العقليَّة ، لا تزال تَعرِضُ له الغَيمةُ بعد الغيمة من اختلالٍ بعض المراكز العصبية فيه ، وفسادِ أعمالِها بهذا الاختلال ، وقيامِ الطَّبيعة فيها على هذا الفساد .

ومن ذلك تنقلبُ الكلمةُ من الكلام ، وإنَّها لحادثةٌ تامَّةٌ في عقل المجنون كالقصَّةِ الواقعةِ لها زمانٌ ، ومكانٌ ، وبَدْءٌ ، ونهايةٌ ، لا يُخامِرُه فيها الشَّكُّ ، ولا يَعْتَرِيها التَّكذيب ؛ وكيف وهي قائمةٌ في ذهنه من وراءِ سمعِه ، وبصرِه قيامَ الحقيقة في الأبصار والأسماع ؟

ولحواسِّ المجنون جِهَتان في العمل ؛ لأنَّها بين كَوْنَينِ : أحدُهما الكونُ الخَرِبُ ؛ الذي في دماغه ، وفي هذا يقول (نابغة القرن العشرين) : إنَّ في داخلِ عينيه مِنظاراً يرى به الأشياءَ في غيرِ حقائِقها ؛ أي : في حقائقها .

وحدَّثنا الدكتور محمَّد الرَّافعي قال : إنَّ في دار المجانين بمدينة ليون بفرنسا نابغةً كنابغة القرن العشرين ، ذُكِرَتْ أمامه قيصرةُ روسيا ، وخَبَرُ مقتلها ، فأحفظَهُ

---

(١) « المتدجي » : المظلم .

هذا ، وأرْمَضَه[1] ، وقال : يا ويْحهم ! كَذَبوا عليها ، وعليَّ . . . فسأله الدكتور : وكيف ذلك ؟

قال : كان من خبر القيصرة أنَّها رأتني ، فأحبَّتني ، وعلمتُ من كلِّ وجهٍ يمكن أن يعلمَ منه قلبُها : أنِّي أنا رجلُها ، لا القيصر ؛ فما زالتْ بعدها تُناكِدُ القيصر ، وتَلْتَوِي عليه ، ولا تصلُح له في شيءٍ حتَّى يَئِس منها ، فطلَّقها ، فحملتْ كنوزَها ، وحِلاها ، ولجأتْ إلى حبيبها ، ثم تَبِعتْها نفسُ القيصر ، ولم يُطِقِ العيشَ بعدَها فانتحر . . . ثمَّ طلبها الشُّيوعيون لما معها من كنوزٍ ، فأخفاها هو في مكان حريزٍ لا يعلمه إلا هو ؛ ثمَّ إنَّه هو لا يصلُ إلى هذا المكان الذي أحرزَها فيه إلا إذا نام . . . كيلا يراه أحدٌ من الشُّيوعيين ، فيتعقَّبه ، فيعلمَ مقرَّها ؛ ولهذا كان من الحكمة أن يَنسى المكانَ إذا استيقظ . . . فقد يَزِلُّ مرَّةً ، فيُخبِرُ به ، أو يغلبُه الشَّوق مرَّةً على «عقله» . . . فيذهبُ إليه ؛ فعسى أن يراه من يَنِمُّ بذلك ، فتفتضِحُ الحبيبة ، وتؤخَذُ منه .

قال : وإنَّ القيصرةَ هي تحتاط أيضاً مثلَ ذلك ، فتراسِلُه كلَّ يوم باللاسلكي رسائلَ تقع من الجوِّ في دماغه ، فيقرؤها وحده ، وإنَّ أخوفَ ما يخافه أن يغلبَها جنونُ الحبِّ يوماً ، فتطيشَ طيش المرأة ، فتزورَه في هذا المارستان . . . . . . فقد تُقتَلُ إذا رآها الشُّيوعيون .

قال الدكتور : وهاك (نابغة) آخر ثبتَ في ذهنه : أن امرأةً من أجملِ النِّساء قد استهامتْ به ، وأنَّها مُبتَلاةٌ في حبِّها إيَّاه بجنون الغَيْرة ، وقد تَناهَتْ فيه حتَّى إنَّها لَتقتل نفسَها ؛ إذا علمتْ : أنَّ لصاحبها هوًى في امرأةٍ أخرى . وخبَّلَته هذه الفكرةُ ، فاعتقد : أنَّ حبيبتَه من جنون غَيرتها واقعةٌ بين السَّلامةِ ، والتَّلَف ؛ ثُمَّ توهَّم ذات يوم : أنَّ واشياً قد أعلمها : أنَّ النِّساءَ افتتَنَّ به ، فطار صوابُها ، فهي آتيةٌ إليه في المارستان لتوبخَه ، وتشفِيَ غيظَها منه ، ثم تنتحرَ أمام عينيه . . . وأدار (النَّابغة) الكفرَ في إقناعها لتعلمَ : أنَّه لم يَخُنْها بالغيب . . . فلم يهتدِ إلى مَقْنَعٍ تَسْتَيْقِنُ به المرأةُ أن لا أرَبَ للنِّساء فيه إلا أنْ . . . ففعل وَجَبَّ خِصيتيه بيده ليقدِّمَهما بُرهاناً : أنَّه لها وحدها .

* * *

---

(١) « أرمضه » : الأمرُ : أوجعه .

قلنا : وطَرِب (نابغة القرن العشرين) لذكر صواحِبه وجميلاتهِ ، فجعل يترنَّم بهذا الشِّعر :

قالوا جُنِنْتَ بمن تهوَى فقلتُ لهم ما لـذَّةُ العيشِ إلا للمجانيـنِ[1]

فقال المجنون الآخر : « ممَّا حفظناه » : ما لذة « الخبز » إلا للمجانينِ .

فضحك (النَّابغة) : وقال : ما أسخَفَك مِنْ أحمق . إذا كان هذا هو المعنى ؛ فقل : ما لذة (الكعك) . ألم أقل لكم إن هذا الأبله لو تَهَجَّأ كلمة خبز ؛ لقال : إنها ل . ح . م . ولو تهجأ كلمة لحم ؛ لقال : ف . و . ل .

إنَّه طفلٌ عمرهُ ثلاثون سنة ، وفيه دائماً غضبُ الطِّفل ، ونَزَقُه ، وحماقتُه ، وفيه كذلك سرورُ الطِّفل ، وطيشُه ، وأحلامُه ؛ غير أنَّه ليس فيه عقلُ الطِّفل . . . وهو من الضَّعف ، وشدَّةِ الحاجة إلى العناية في حياطتِه ، وسياسته ، والبِرِّ به كطفلٍ صغيرٍ ، بحيث يُخيَّل إليَّ أحياناً أنَّني أمُّه .

قلنا : وتَنسى في هذه الحالة أنَّك رجلٌ ؟ .

قال : وأنتم كذلك تتَّهمونني بالنِّسيان ، وهو شرعاً جِهةٌ مُلزِمَةٌ للحكم بالجنون فما النِّسيانُ إلا الكلمةُ الأخرى لمعنى ضعفِ العقل ؛ وضعفُ العقل هو اللفظُ الآخر لمعنى جنوني ؛ وقد أعلمتُكم ما أكره من الكلام .

قلتُ : لا ، النِّسيانَ لا يكون منك نسياناً بمعناه في المجانين ، بل بمعناه فيك أنت من تَواثُبِ الأفكارِ النَّابغة ، وتزاحُمِها في تَوارُدِها على العقل . فإذا تواثبتْ ، وتزاحمتْ ؛ كان أمرُها إلى أن يُنسِيَ بعضُها بعضاً ، فلا ينطلقُ منها إلا القويُّ النَّابغُ حقَّ نبوغه ، فيجيءُ كالمنقطِع ممَّا قبله ؛ فيُحْسَبُ ذلك نسياناً وما هو به . وقد تصطلحُ الأفكارُ في هذه المعركة الذِّهنيَّة إذا كان النَّابغة مسروراً مَحبوراً يرقصُ طرباً . . . . . . فيكون أمرُها إلى أن تجيءَ كلُّها معاً على اختلافِ معانيها ، وتناقضِها ، فيُحْسَب ذلك ضرباً من الذُّهول عند من يجهلُ العلَّةَ « النُّبوغيَّة » ؛ وعذرُه جهلُ هذه العلَّة ، وهي في دَلالة العقل ليست نسياناً ، ولا ذهولاً .

قال : فأعْلِمْني كيف نسيانُ المجانين ، فقد خَفِيَ عليَّ أن أدركَ هذا الأمر

---

(١) ديوان مجنون ليلى (٢٨١) .

العجيبَ فيهم ، ولست أدري كيف يفوتُهم ما استدنى لهم من الفكر بعد أن يكون قد استقرَّ ، وحَصَل في عقولهم ؟

قلت : لا يكون النِّسيانُ تُهمةً بالجنون إلا في أحوالٍ ثلاثٍ ، جاءت بكلِّها الرِّوايةُ الصَّحيحةُ المحفوظة :

فأما الأولى : فما يُروَى عن رجلٍ كان سَرِيّاً غنيّاً ، وعُمِّر حتَّى أدركه الخرَف ، فجاءه كاتبه يوماً يستعينه على تجهيز أمِّه ، وقد ماتت ، فدفع إلى غلامٍ له دنانيرَ يشتري بها كفناً ، ودنانيرَ أخرى يتصدَّق بها على القبر ، ثمَّ قال لغلامٍ آخر : امض إلى صاحبنا ، وغاسِلِ موتانا فلان ، فادْعُهُ يغسلها . قال الكاتب : فاستحييتُ منه وقلت : يا سيدي ابعثْ خلف فلانة وهي جارَةٌ لنا تغسلها . قال : يا فلان ! ما تدعُ عقلك في حزنٍ ، ولا فرحٍ . كيف نُدخِل عليها مَنْ لا نعرفه ؟

قال الكاتب : نعم تأذَنُ بذلك . قال : لا والله ! ما يغسلها إلا فلانٌ .

فضاق الكاتبِ بهذا الحمق ، وقال : يا سيدي ! كيف يغسل رجلٌ امرأةً ؟

قال : وإنَّما أمُّك امرأة ؟ . . . والله ! لقد أُنسِيت .

وأمَّا الحالةُ الثانية : فما يُروى عن رجلٍ كان نائماً في ليلةٍ باردةٍ ، فخرجت يدهُ من الفراش ، فبردتْ ، فأدناها إلى جسده ، وهو نائمٌ فأحسَّ بردَها ، فأيقظتْه ، فانتبه فَزِعاً ، فقبض عليها بيده الأخرى وصاح : اللُّصوص ! اللُّصوص . . . ! هذا اللِّصُّ قد قبضتُ عليه ، أدركوني لئلا تكونَ في يده حديدةٌ يضربني بها ، فجاؤوا بالسِّراج فوجدوه قابضاً بيده على يده ، وقد نسي أنَّها يدُه .

وأمَّا الثالثةُ : فهي روايةٌ عن رجلٍ قد وَرِثَ نصفَ دارٍ ، ففكَّر طويلاً كيف تخلُصُ الدَّارُ كلُّها له ، ثُمَّ اهتدى إلى الوسيلة ؛ فذهب إلى رجلٍ ، وقال له : أريد أن أبيعَك حصَّتي من الدَّار ، وأشتري بثمنها النِّصف الباقي لتصير الدارُ كلُّها لي .

* * *

قال (النَّابغة) : لَعمري ! إنَّ هذا لهو الجنونُ ، وما يُذْكَر مع هؤلاء مجنون المتن ، ولا « غيرُه » .

فقال الآخر : تالله ! لولا أنَّ (نابغة القرن العشرين) يرفع نفسَه عن الجنون لجاءَ في الجنون بما يُذهِلُ « العقول » .

ثُمَّ نظر فإذا النَّابغة يتحفَّز له ؛ فأسرع يقول : « ممَّا حفظناه » كُنْ حذِراً ؛ كأنَّك غِرٌّ ، وكن ذاكِراً ؛ كأنَّك ناسٍ . فهذا هو نسيانُ نابغة القرن العشرين ، نسيانُ حكماء ، لا نسيانُ مجانين .

قال (النَّابغة) : ولكن قد فسد قولُ الشَّاعر : ما لذَّةُ العيش إلا للمجانين ؛ فما بقيتْ مع الجنون لذَّة .

قلت : إنَّ الشَّاعر لا يرد المجانين الذين هم مجانين بالمرض ، وإنَّما يريد العشَّاقَ المجانينَ بالجمال ؛ وجنونُ العاشق في هذا الباب كعيوب العظماء من أهل الفنِّ ، وهي عيوبٌ تُدافع عن نفسها بحسَنَات العظَمة ، فليست كغيرها من العيوب .

قال : فيجب أن أصنعَ بيتاً آخرَ يفسِّر ذلك الشعرَ ليستقيمَ لي التمثُّل به . ثُمَّ فكَّر ، وهَمْهَمَ ، ثُمَّ كتب في ورقةٍ ، ثُمَّ طواها ، وقال : اصنع أنت أولُ ، وسأأتمنُ س . ع . على شعري ، ودفع إليه الورقة هكذا :

قالوا جُنِنتَ بمن تهوى فقلتُ لهم ... ما لذَّةُ العَيشِ إلا للمجانينِ
العقلُ إن حَكم العُشَّاق أثقلُ من ... فَقرٍ تحكَّمَ في رِزْقِ المساكينِ

ونشر س . ع . الورقة فإذا فيها :

قالوا جننتَ بمن تهوى فقلت لهم ... ما لذَّة العيش إلا للمجانينِ
إنَّ العيوبَ عن المجنون دافعةٌ ... بأنَّه « نابغٌ في القرن عشرينِ »

وضحكنا جميعاً ، فقال النَّابغة : أبعدك الله يا س . ع . إنَّ من ائتمن المجنون على سرٍّ ، وقال له : اكتمه ، فكأنَّما قال له : انشره .

* * *

ثمَّ قال : وَدِدْتُ والله ! أن يكونَ س . ع . هذا « نابغة » ، ولكنِّي سأجعله نابغة . فقد صار عَلَيَّ حقُّ الصَّديق ، وهو حقٌّ لا أضيِّعه ، ولا أُخِلُّ به . فإذا احتجتَ يا س . ع . إلى خطابٍ رنَّان تلقيه في حَفْلٍ عظيمٍ ، أو قصيدةٍ تمدح بها وزير المعارف ، فالجأ إليَّ فإنِّي ملجأٌ لك . ومتَّى انتحلتَ شعري ؛ كنتَ عند النَّاس المتنبِّي ، أو البحتري ، أو ابنَ الرُّومي ، فإنَّ هؤلاء القُدامى لم ينفعهم إلا أنني لم أكن فيهم ، ولما لم أكن فيهم ؛ أعجبوا النَّاسَ ؛ إذ أنَّني لم أكن فيهم .

قلنا : فما حكمك عليهم في الأدب ؟

قال : إذا حكمتُ عليهم ؛ فقد جعلتُ نفسي بينهم ، فمن الطَّبيعي ألا يعجبني منهم أحد . إنَّ « نابغة القرن العشرين » لا يقول لمعنىً هذا أحسنُ ، فإنَّه هو فوق الأحسن ، ولا يقول عن نابغة هذا أشهر ، فإنَّه هو فوق الأشهر .

قلت : كأنَّ الدُّنيا تحت قدميك ، وأنت فيها الزَّاهدُ العظيمُ الذي لا يقول في حُسنٍ : هذا أحسنُ ؛ لأنَّه فوقَ الشَّهوة ، ولا في نعيمٍ : هذا أطيبُ ؛ لأنَّه فوق الطَّمع ، لا في مالٍ هذا أكثر ؛ لأنَّه فوق الحرص . وأحسِبك لو كنتَ تَرعى غنماً ؛ لكنتَ الحقيقَ في عصرنا بقول الرَّاعية الزَّاهدة : أصلحتُ شأني بيني وبينه ، فأصلح بين الذِّئب ، والغنم .

قال : وكيف ذلك ؟

قلت : حكي عن بعض الصَّالحين : أنَّه فكَّر ذاتَ ليلةٍ : فقال في نفسه : يا رب ! مَن زوجتي في الجنَّة ؟ فأُريَ في منامه ثلاثَ ليالٍ : أنَّها جاريةٌ سوداءُ في أرض كذا . فجاء تلك الأرضَ ، فسأل عن الجارية ، فقال له رجلٌ : ما هذا ؟ تسأل عن جاريةٍ سوداءَ مجنونةٍ ، كانت لي ، فأعتقتها ؟ قال : وماذا رأيتم من جنونها ؟ قال : كانت تصوم النَّهارَ ، فإذا أعطيناها فُطُورها تصدَّقتْ به ، وكانت لا تهدأ اللَّيلَ ، ولا تنام ، فضجرنا منها .

قال : فأين هي ؟

قال : ترعى غنماً للقوم في الصَّحراء .

فذهب إلى الصَّحراء فإذا هي قائمةٌ في صلاتها . ونظر إلى الغنم ، فإذا ذئبٌ يدلُّها على المرعى ، وذئبٌ يسوقها . فلمَّا فرغت من صلاتها ؛ سلَّم عليها ، فأنبأته : أنَّه زوجها في الجنَّة ، وأنبأها : أنَّه بُشِّر بها ؛ ثُمَّ سألها ما هذه الذِّئابُ مع الأغنام ؟ قالت : نعم أصلحتُ شأني بيني ، وبينه ، فأصلح بين الذِّئب ، والغنم .

قال (النابغة) : هذا كذبٌ ؛ لأنَّه عجيبٌ ، وهو عجيبٌ ؛ لأنَّه كذبٌ .

قلت : وأيُّ عجيبٍ في هذا ؟ إنَّ الذِّئبَ والشَّاةَ ، والأسدَ والغزالَ ، والثُّعبانَ والعصفور ، وكلَّ آكلٍ ومأكول من الأحياء ، لو هي دخلتْ في دائرة الصَّلاة الحقيقيَّة ؛ لانتظمتْ كلُّها صَفّاً واحداً يركَع ، ويسجد . فهذه الجاريةُ نشرتَ رُوحَ

الصَّلاة ، والتَّقوى على كلٍّ ما حولها من قلبها الطَّاهر المطمئنِّ بالإيمان ، فوقع الذِّئبُ منها في دائرةٍ مغناطيسيَّة ، فسُلبَ وحشيتَه ، ورجع مُسَخَّراً لفكرة الصَّلاح ، والخير ؛ إذ تجانَسَتْ فيه الحياةُ بما حولَها ، وانسجم النَّوعُ ، والنَّوعُ في حركةٍ متجاوبةٍ انسجامَ الرَّجُلِ المغناطيسيِّ هو ومن ينوِّمه في إرادةٍ واحدةٍ ، وفكرةٍ واحدة .

قال (النابغة) : فإذا دخل الذِّئبُ مسجداً يَرْتجُ بالمصلِّين ، أتُراه يَصُفُّ أَرْبعتَهُ ، ويقفُ بينهم للصَّلاة ، أم يصلي صلاتَه الذِّئبيةَ في لحومهم ؟

قلت : وأين هم الذين يصلُّون بحقيقة الصَّلاة ، فيخرجون بها من النَّفس إلى الكون ، ومن الزَّمن إلى الأبد ، ومن الأسبابِ إلى مُسبِّبها ، وممَّا في القلب إلى ما فوقَ القلب ؟ إنَّ هؤلاء جميعاً يصلُّون بجوارحهم وبينَهم وبين أرواحِهم طولُ الدُّنيا وعَرضُها ؛ وما منهم إلا من يتَّصل فكرُه بما يَغلب عليه ، كما يتَّصل فكرُ اللِّص بيده ، وفكرُ العاشِق بعينه ، وفكرُ الطفَيليِّ بمعدَتهِ . . . فاسمُها عندهم الصَّلاة ، وحقيقتُها عند الله كما ترى .

قال (النَّابغة) : ولكنه ذئبٌ من طبيعته أن يأكل الشَّاة ، لا أن يرعاها ، فلا أفهم شيئاً .

وقال الآخر : « ممَّا حفظناه » رتَعَ الذِّئبُ في الغنم ، ولم يقولوا صلَّى الذئب في الغنم ، فلا أفهم شيئاً .

قلت : سأزيدكما عَدَمَ فهم . . . إنَّ قلب تلك المرأة العظيمة الطاهرةِ متصلٌ بالله ، وليس فيه شيءٌ من طباعها الإنسانيَّة ، ولا ظلٌّ من ظلال الدُّنيا ؛ وقد تجلَّى فيه سرُّ الحياة ، وهو السِّرُّ الَّذي لا يَطعم ، ولا يَشرب ، ولا يَلبَس ، ولا يَشتهِي ، ولا يَطمع في شيءٍ ، ولا يُحرز شيئاً ، وإنَّما طبيعتُه أشواقُه الكونيَّةُ ، واتِّصالُهُ بنَفَحات القوَّة الأزليَّة المسخِّرةِ للوجود كلِّه . فانتشرتْ هذه الموجةُ الكهربائيةُ الأثيريَّةُ حول الجارية من قلبها ، وجاء الذِّئب ، فالتَجَّ فيها ، وغمرتْه الرُّوحانيَّةُ الغالبة ، فإذا هو يفتح عينَه على كونٍ غريبٍ قد تجلَّى السَّلامُ عليه ، فليس فيه إلا قوةٌ آمرةٌ أمرَها بائتلاف كلِّ شيءٍ مع كلِّ شيءٍ ، واجتماعِ المتنافِرَيْن في حالةٍ معروفةٍ ، لا في حالة إنكار . فصار الذِّئب مستيقِظاً ، ولكنَّه في رُوح النَّوم ، وشُلَّتْ فيه الذِّئبيَّةُ الطَّبيعيَّةُ ، فإذا هو يحملُ الأنيابَ ، والأظافرَ ، وقد أنسِيَ استعمالَها ؛

وبقيتْ حركتُه الحيوانيَّةُ ، ولكن تعطَّلت بواعثُها ، فَبَطَل معناها .

ومن كل ذلك اختفى الذِّئبُ الَّذي هو في الذِّئب . وبقَي الحيوانُ حيّاً ككلِّ الأحياء ، فناسب الشَّاةَ ، وفزع إليها ؛ إذ لم تكن العَلاقةُ بينهما عَلاقةَ جسم الآكلِ بجسمِ الأكيلة ، بل علاقة الرُّوح الحيِّ بروح حيٍّ مثلِه[1] .

* * *

قال (النَّابغة) : أمَّا أنا ؛ فقد فهمتُ ، ولكنَّ هذا المجنونَ لم يفهم . أُكتبْ يا س . ع : جلس نابغة القرن العشرين مجلسَه للفلسفة على غير إعدادٍ ، ولا تمكُّنٍ ، وبدون كتُب ألبتَّة . . . وكان هذا أجمعَ لرأيه ، وأذهَنَ له ، وأدعى لأنْ يتوفَّرَ على الإملاء بكلِّ « مواهبه العقلية » ؛ ولمَّا أن فكر النَّابغةُ ، وأعطى النَّظرَ حقَّه ، وجمع في عقله الفذِّ جزالةَ الرأي إلى قوةِ التَّفنُّن ، والابتكار ، قال مرتجِلاً : إنَّ فلسفةَ الذِّئب والشَّاة حين لم يأكلْها ، ولم تَنْطَحه ، هي بالنَّص ، وبالحرف ، كما قال أستاذ نابغة القرن العشرين .

(حاشية) وإنَّ مجنون المتن لم يفهم هذه الفلسفة .

---

(١) روت الصُّحف في هذه الأيام قصَّة حاكمٍ إنجليزيٍّ كان قد اقتنص ذئباً هنغارياً ، وشدَّه في سلسلة ، وجعله في حديقة داره إلى أنْ يرى فيه رأياً ؛ وكان للحاكم طفلٌ صغيرٌ أعجبه الذِّئب ، ومنظره الوحشيُّ ، فتربَّص به إلى الليل ، فلمَّا استثقل أهله نوماً انسلَّ من حجرته ، وهبط الحديقة ، وجاء إلى الذِّئب فوثب هذا يتحفَّز لافتراسه ؛ ولكنَّ الطفل لم يدركْ شيئاً من معنى الوحشيَّة ، ولم يكن في نفسه إلا أنَّ الذِّئب كالكلب ، فلم يضطرب ، ولم يخف ، ولم يداخله الشَّكُّ ؛ ومضى إلى الوحش مسروراً مطمئناً فتناوله من شعره وجعل يمسحه بيده الصَّغيرتين ، ويعبث به ، والذِّئب مدهوشٌ ذاهلٌ ، ثمَّ سكن ، واستأنس إليه كأنَّه مع جروٍ من أجرائه لا مع طفل آدميٍّ ؛ وجذبه الطِّفل من رقبته حتَّى أضجعه ، ثمَّ اتخذه وسادة ووضع رأسه على ظهره ، ونام . . . وافتقدت الطِّفلَ مربِّيتُه ، فلم تجده في فراشه ، فنبَّهت أهله ، وذهبوا يبحثون عنه في غرف الدَّار ، ثمَّ نزلوا إلى الحديقة ، فبصروا به نائماً ، ورأسه على الذِّئب ، وخافوا إزعاج الوحش ، فرموه بالرَّصاص فقتلوه ، وقام الطفل يبكي على صديقه الوفيِّ .
هذا هو أثر الرُّوح المطمئنة الماضية على يقينها ، ولكن أين مثل هذا اليقين في مثل هذه الحالة ؟ وكلُّ مروضي الوحوش يعلمون أنَّ أوَّل وآخر ما يخيفونها به هو نزع الخوف من أنفسهم ، وأنَّ هذا هو وحده سلاح النَّفس في النَّفس . (ع) .

فامتعضَ الآخر ، وقال : « ممَّا حفظناه » :

وبـات يَقـدحُ طـولَ الليـلِ فكـرتَـه وفسَّـرَ المـاءَ بعـد الجُهْـدِ بـالمـاءِ

فقال (النَّابغة) : ويلك يا أبله ! أما والله ! لو كنتَ نَفْطَوَيْه ، أو سيبوَيْه ؛ لما كنت عندي إلا جَحْشَوَيْه ، أو بَغْلَويه .

لقد كنتُ أرى الكلامَ في تلك الفلسفةِ طريقاً نَزِهاً جميلاً ، حفَّته الأشجارُ ، والأزهارُ عن جانبيه ، واندفعتْ في سَوَائه (تُمبيلاتُ) الأفكار خاطفةً كالبرق . فلمَّا تكلَّمتَ أنت ؛ انتهينا من سخافتك إلى طريقٍ حجريٍّ تُقَعْقِعُ فيه عرباتُ النَّقل تجرُّها البغالُ البطيئة .

فقال الآخر ؛ وهو يعتذر إليه : ما أردتُ والله ! مَسَاءَتَك ، ولو أردتُها ؛ لقلت : وفسَّر الماءَ بعد الجهد بالسَّبرتو . . . فهذا هو الخطأ ، أمَّا تفسيرُ الماء بعد الجهد بالماء ؛ فهو صحيحٌ .

قال (النَّابغة) : ولكنَّه تفسيرٌ مُفْرِطُ السُّقوط ، كتفسير المجانين ، فهو يقول : إنِّي مجنون .

قلت : كلاَّ . إنَّ تفسيرَ المجانين يكون على غير هذا الوجه ، كالَّذي حكاه الجاحظ ، قال : سمعتُ رجلاً يقول لآخر : ضربنا السَّاعةَ زِنديقاً .

قال الآخر : وأيُّ شيءٍ الزِّنديقاً ؟

قال : الَّذي يُقَطِّع المزِّيقاً .

قال : وكيف علمتَ : أنَّه يقطِّع المزِّيقاً ؟

قال : رأيتُه يأكل التِّين بالخلِّ .

* * *